# أضواء على الأدب السوفياتي الحديث

بقلم الدكتور يحيى ادريس

لا شك في اننا مقصرون جدا في الاطلاع على الادب السوفياتي الحديث ، وفي اطلاع القراء العرب عليه .

هذا هو الشعور الذي داخلني منذ بدات زيارتي للاتحاد السوفياتي ، في مطلع الشهر الماضي ، بدعوة من اتحاد الادباء السوفيات.

ولقد أحسست كذلك اننا لم ننجح دائما في ان نكون موضوعيين في هذه المجلة ، حين كنا نتحدث عن الادب السوفياتي ، لاننا كنا غالبا ما نعتمد في هذا الحديث على المصادر الغربية التي كانت هي نفسها ، في احيان كثيرة، ذات أغراض معينة .

غير اننا مع ذلك لم نمتنع عن مصارحة الذين لقيناهم من الادباء السوفيات بأننا لا نستطيع دائما ان نعتمد على المصادر السوفياتية ، لانها كثيرا ما تغلف أقوالها بغلاف الدعاية .

وعلى هذا يكون السلوك الموضوعي الحقيقي ، هو ان نورد الحديث عن هذا الادب ، وعن ادب كل بلد اخر ، في سرد مجرد ، ثم نبدي رأينا او اجتهادنا فيه ، بالرغم مما يكتنف ذلك من صعوبات .

وانطلاقا من هذا المبدأ ، ركزت اهتمامي على دراسة الوضع الادبي في الاتحاد السوفياتي، مضحيا احيانا بفضول زياره معالم الحياة والاطلاع على الانجازات التي حققتها الاشتراكية .

ولقد قابلنا عددا من الادباء والنقاد ، وزرنا كبريات الصحف الادبية ، الاسبوعية والشهرية ، وتحدثنا الى المشرفين عليها ، سائلين ومجيبين ، وقرأنا بعض الدراسات، وأطلعنا على مناقشات كثيرة قامت بين الادباء السوفيات في مؤتمراتهم ومجلاتهم .

وبالرغم من ان ذلك كله لا يمكن ان يعتبر الا مدخلا الى دراسة الادب السوفياتي ، فقد أتاح لنا ان نقف على القضايا التي تهم الادباء والمثقفين ، وعلى الموضوعات التي يعالجونها ، وعلى النتاج الذي يصدرونه .

*

ولكن لا بد لنا ، قبل ان نلقي الاضواء على الادب السوفياتي الحديث ونستعرض ملامحه ، من ان نشير الى ظاهرة بارزة كانت تطالعنا في كل موضوع نثيره تقريبا، وهي التأكيد على ان « عبادة الفرد » في عهد ستالين كانت سببا رئيسيا في كل نقص عاناه الادب السوفياتي ، وفي كل نقد يوجه اليه ..

لقد كان مضيقا على الادباء والفنانين تضييقا شديدا، وكان زبانية جدانوف يمارسون على الفكر ارهابا عنيفا يدفع المفكرين الى الصمت والانزواء ، والى التخلي عن الانتاج في كثير من الاحيان . وقد عرف الادب سلسلة من الاثار ألفت بسرعة لتمجيد ستالين . وفي تلك المرحلة، كانت السلطات تشيع ان الانسان ليس الا « برغيا » صغيرا في آلة الدولة ، وان ليس هناك أشخاص غير « قابلين للاستبدال » .

على ان المراقب يلاحظ اليوم ان نزعة رد كل نقص او سوء في الانتاج الادبي الى ظاهرة عبادة الشخصية اصبح مبالغا فيها بشكل يدعو الى الحذر . فأنا لم أستطع أن أفهم مثلا ما قاله لي يوري نجيبين (١) حين لقيناه في دارته بضاحية موسكو من ان عهد ستالين لم يكن يشجع تأليف القصة القصيرة ونشرها ، بعكس العهد الحالي !..

ثم ان الخوف من ادانة الاثار الادبية في ذلك العهد، وبالتالي ضرورة اسقاط فترة برمتها من تاريخ الادب السوفياتي الحديث ، جعل بعض النقاد يحذرون من اطلاق الاحكام السلبية العامة . وهكذا نسمع ناقدا كنيقولاي غابي يقول « ان النزعة الانسانية لم تختف قط من الحياة ومن الادب في تلك الفترة ، بل ان هذا الموضوع قد اكتسب صوتا اقوى في أفضل انتاج الكتاب السوفيات من مثل « الدون الهادىء » لشولوخوف » . وأشار ايفان انيسيموف الى هذا الموضوع ، فقال وهو يتحدث عن عهد عبادة الفرد ان علينا أن نعيد النظر في قيمة سلسلة من المؤلفات ، ولكن لا ينبغي لنا ان «نضرب عرض الحائط» بمجموع الادب السوفياتي. ان الادب لم يصدر عن عبادة الفرد ، بل هو قد انجز أثرا رفيعا معقدا ، وكان الشعب يعبر فيه عن نفسه » .

ومع ذلك ، فهل نجا الاديب السوفياتي ، في عهد خروتشوف الحالي ، مما كان يشكو منه من ضغط وارهاب في عهد ستالين ؟ هذا ما سوف نعرض له حين نتحدث عن الاديب السوفياتي والدولة .

## ١ ـ مذهب الواقعية الاشتراكية

ما تزال الواقعية الاشتراكية مذهب الدولة الرسمي في الانتاج الادبي والفني العام . ويطلب هذا المذهب تصوير الواقع تصويرا تاريخيا حسيا في تطوره الثوري وفي تغيير البشر ايديولوجيا على صعيد الاشتراكية .

وعماد الواقعية الاشتراكية هو قبل كل شيء التصوير الفني لبطل جديد ، كان مجهولا في الماضي ، هو الجموع الشعبية التي ايقظتها الثورة وجندتها لاستخراج الدور التاريخي الذي يمثله الناس العاديون البسطاء ، الذين هم « اسياد الحياة الحقيقيون » كما يقول غوركي .

وقد عبر غوركي عن النزعات العامة التي أشار اليها لينين عام ١٩٠٥ حين تحدث عن الواقعية الاشتراكية. وكان غوركي اول من ادخل في الادب نموذجا جديدا

(١) من أشهر كتاب القصة القصيرة المعاصرين ، وهو زوج الشاعرة المعروفة بيللا أخمدولينا .

يسر «الآداب» ان تعلن ان عددها السنوي الممتاز سيكون في العام القادم خاصا بـ

# فلسطين

**فلسطين : الارض المقدسة التي يستعد العرب اليوم ، في جميع أقطارهم ، لاسترجاعها من الصهيونية المغتصبة ، والتي طبعت النتاج الادبي ، في السنوات الخمس عشرة الماضية ، بطابعها المأساوي العنيف .**

**و « الآداب » تدعو ادباء العربية ، من دارسين وقصاصين وشعراء ، الى المشاركة في تحرير هذا العدد الضخم الذي سيصدر في مطلع اذار ( مارس ) القادم ١٩٦٤ .**

للشخصية الايجابية ، وقال عنه لينين انه اكبر ممثل لفن البروليتاري.

ولم يكن غوركي هو الوحيد. فان انتاج سيرافيموفيتش وفورمانوف وبدني ومایاكوفسكي يثبت ميلاد موقف جديد للفن ازاء الواقع ، واكتشاف سلسلة جديدة من نماذج الابطال والاحداث واقتراح تقدير ايديولوجي جديد لهذه الابطال والاحداث .

ومن ابرز الامثلة على آثار الواقعية الاشتراكية مؤلفات شولوخوف ولا سيما « الدون الهادىء » و «مصير انسان » و « الاراضي البكر » . و « آفاق بعيدة » لتفاردوفسكي و « الانسان » لميازيليتس و « جميلة » لايتماتوف واشعار خمزانوف و « حقيبة ملآى بالقلوب » لفيدورف ، و « محكمة الذاكرة » لاساييف .

والغاية الرئيسية للواقعية الاشتراكية هي ، على حد قول ليونيد ايليتشيف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، « الصراع العنيف من اجل انتصار المجتمع الاوفر انسانية وعدالة على الارض، انتصار الشيوعية » (١) .

والطابع المميز للواقعية الاشتراكية هو الرؤية التاريخية وتحليل جميع ظواهر الحياة ، سواء ما يتعلق منها بالتطورات الاقتصادية او باسرار النفسية الانسانية. فالتحليل الاجتماعي هو الذي يتيح رؤية الحياة في تناقضاتها الحقيقية وجعل ظواهرها وشخصياتها نموذجية.

من هنا كانت وحدة العمل والهدف بين الحزب الشيوعي والادب السوفياتي . وقد فتح هذا مجالا للانتقاد بان الادباء السوفيات لا يكتبون الا بأمر او بايحاء من الحزب . وقد رد شولوخوف على هذا الانتقاد ردا يخيل للقارىء ان فيه نفيا للفكرة ، ولكن فيه في الحقيقة تأييدا لها ، فقال : « ان هذا غير صحيح . ان كلا منا يكتب مستجيبا لامر قلبه ، وقلوبنا هي ملك الحزب والشعب الذي نخدمه بفننا » .

والواقع ان حرية الخلق الفني في الاتحاد السوفياتي مرتبطة ومتكيفة بالحياة الاجتماعيه وبمصالح الشعب وبتطبيق بناء المجتمع . فليس ثمة حرية مطلقة ، بل هناك حرية مسؤولة تستمد كل مبرراتها من خدمة المجتمع. ومن هنا كان الاعتقاد الجازم بانه ليس ثمة « تعايش سلمي » ممكن بين الايديولوجيات .

## ٢ ـ النزعة الانسانية

لا ريب في ان سر الجاذبية التي نجدها في افضل الاثار الادبية العالمية انما يكمن قبل كل شيء في نزعتها الانسانية .

وهذه النزعة هي المطلب الرئيسي الذي ما فتيء الادب الروسي ينشده منذ قرون . وقد كان غوركي يقول: « أن الادب هو اكثر الفنون انسانية ، وبوسعنا ان نقول عن الادباء انهم انسانيون بالمهنة، منتجو النزعة الانسانية ».

واهتمام الادباء السوفيات بهذه النزعة الى هذا الحد يجد تبريره الكافي في التغييرات التاريخية الكبيرة التي يشهدها العالم كله ، وفي الصراع العنيف ضد الخطر الذري الذي يهدد البشرية بالفناء ، وفي غزو الفضاء وتقدم العلم .. وهذا كله يدعو الى العودة بلا انقطاع الى موضوع مكان الانسان في العالم ، وعلاقاته بالمجتمع ، ومستقبله ومصيره .

ـ ١ ـ

ومهمة الادب الاشتراكي ، كما يفهمها الادباء المعاصرون السوفيات ، هي أن يكون ينبوع فرح والهام للايين البشر ، وان يعبر عن ارادتهم ومشاعرهم وافكارهم، وان يغني رؤيتهم للعالم ، وان يربيهم ويثقفهم .

ولئن كان النقد الغربي يأخذ على النتاج السوفياتي، قديمه وحديثه ، نزعة « اللاشخصية » في ابطال

(١) انظر الخطاب الذي ألقاه في ١٧ ديسمبر ١٩٦٢ أثناء اجتماع قادة الحزب والحكومة بممثلي الادب والفن .

الروايات خاصة (كما نرى لدى ايفان كاراتايين في «الحرب والسلم» لتولستوي ، ولدى زوسيما العجوز في رواية « الاخوة كارامازوف » لدستويفسكي ، ولدى سونيا مارميلادوفا في « الجريمة والعقاب » لدستويفسكي ايضا) فان النقد السوفياتي يأخذ على النتاج الغربي — الذي ينعته بالبورجوازي — انه يعزل الخلق الفني عن المشكلات الانسانية الكبرى . بل هو يوكد بعناد انه من غير الممكن تغيير الطبيعة البشرية الخاضعة لنفوذ الغرائز التي لا يمكن ضبطها . ان النظرية الغربية ، في بعض جوانبها، ترى في الدعوة الى تفتيت الشخصية ، والى تحرير الفن من « جذوره البشرية » كل التقدم الفني ، بل المظهر الاكمل لجوهر هذا الفن الذي ليس هو في متناول الجماهير .

ونرى النقاد السوفيات المحدثين يعنون عناية خاصة بالرد على النقد الغربي الذي يوجه الى النتاج السوفياتي، ويوضحون المفاهيم التي يؤمنون بها والتي تكشف عن رؤية خاصة للنزعة الانسانية . من ذلك ما رد به الناقد فلاديمير ارميلوف في مؤتمر ادبي عقد في موسكو في العام الماضي (١) فقال :

**« ان الشخصية ، بل مبدأ الفرد نفسه ، لم يلق في اي ادب توكيدا حرا كالذي لقيه في الادب السوفياتي الذي يعتقد ان كل فرد يمثل عالما بذاته ، لانه قادر على ان يمتص العالم كله ويحمل اليه شيئا جديدا خاصا به . والواقع ان الدفاع عن الشخصية في الادب الروسي كان دفاعا عن الشعب في الوقت نفسه : فعبر وضع الفرد تمكن رؤية وضع الشعب في ظروف اجتماعية معينة . فتولستوي يعرض مثلا أعلى لوحدة البشر وينصبه في وجه الفصل البورجوازي، وهو في فنه يؤكد الشخصية ومبدأ الفرد ويعرض الانسان كوحدة تستخدم لقياس كل شيء. وانسجام الشخصية مع العالم هو معنى جميع الاماني الروحية لابطال « الحرب والسلم » ، وفي « انا كارنينا » يبدو حلم « القضية المشتركة » هو حلم السعادة الشخصية لكل انسان . فمن غير القضية المشتركة لا يستطيع الانسان ان يحس نفسه ، ومن غيرها لا يمكن ان توجد سعادة ، وانما توجد حياة مضجرة ، عبثية ، يتلقاها الانسان تلقيا » .**

ويضيف ارميلوف أن غوركي حين يؤكد ان « الحياة هي العمل » انما يحدد موقفه من الانسان ومن مصيره، وهو يطالب على لسان العامل الميكانيكي « نيل » في مسرحيته « البورجوآزيون » بسعادة المرء في ان يصنع حياته ويغيرها ويخلق .

ويذهب الناقد فلاديمير ستشربينا الى ان وجهة نظر غوركي في الانسان الذي يعتبره جنديا مقاتلا وخالقا للعالم الجديد هي سمة الادب السوفياتي كله (١). وبعد ان يستعرض بعض النظريات الغربية ، يحمل على مذهب « النقد الجديد » ، الشائع اليوم في الادب الاميركي فيقول :

**« ان ممثلي هذه النزعة ، حسب رأي مالكولم كاولي ، يجهدون في « تصفية » الاثار الادبية بحذف كل ما يمكن نسبته الى « العناصر الغريبة » . انهم يرفضون ان يأخذوا بعين الاعتبار حياة المؤلف، ووسطه الاجتماعي ، وبصورة عامة الاناس الذين كانوا نماذج له والذين سيقرأونه، ومعنى الاثر السياسي ، وفكرته الخلقية . وبعد عملية « التطهير » هذه لا تبقى الا « الكلمة العارية » التي ينبغي أن تكون وحدها موضوع دراسة الناقد . وهكذا يصبح الفن ، مفصولا عن كل محتوى انساني حقيقي واجتماعي ، هو الكشف الاخير للفكر الاستاطيقي » .**

وردا على ذلك يبين ستشربينا خطر حرمان الفن من جوهره الانساني وابعاد الانسان التاريخي الواقعي بكل المشكلات التي يطرحها ، ثم يدحض دعوى الاعداء الايديولوجيين للنزعة الانسانية الاشتراكية حين يزعمون ان هذه النزعة تخلق صراعا لا مفر منه بين الانسان والمجتمع ، وتؤدي الى خنق الشخصية والى افقادها حريتها . ويقول الناقد في دلك : « انهم يفهمون الحرية الشخصية على طريقتهم ، انهم يرونها في معارضة الفرد بالمجموع » بينما يراها الفكر الاشتراكي الشيوعي في وحدة الفرد والمجتمع ، الانسان والانسانية « ومن المستحيل تحرير الشخصية بفصلها عن المجتمع » .

ويرى ستشربينا ان الكتاب الغربيين الذين يعارضون رومانتيكية رجل العمل بـ « بطولة اليأس » ويتحدثون عن التشكك ازاء الواقع والتشاؤم نحو التاريخ انما يصدرون عن مبدأ استحالة تغيير الحياة ويؤمنون بان من العبث الصراع . وهناك وجهة نظر واسعة الانتشار في الغرب وهي اننا دخلنا عصرا يجب على الفنان فيه ان يسبر غور عالمه الداخلي ويفر من كل ما هو اجتماعي ، ومعظم الحركات الادبيه الحالية في اوروبا واميركا تحاول ان تدفع الصراع بين الفرد والمجتمع الى ذروته ، وان تصنع منه نوعا من القانون العام لنمو الادب والفن . « اما الادب السوفياتي ، فهو يريد ان يجعل ممكنا كل الامكان اغناء الفرد الذي يحقق نفسه على قاعدة تدعيم صلات الانسان بالمجتمع. والمفهوم الايديولوجي والفني لافضل آثار الادب السوفياتي يتلخص بتمجيد وحدة الفرد والمجتمع . فعودة الانسان نحو شعبه هي المضمون الرئيسي لعدد كبير من الاثار المرموقة كثلاثية الكسي تولستوي « درب الآلام » ورواية « سيباستبول » لالكسندر ماليشكين وروايات كونستنتين فادين : « الاخوة » و « الفرحات الاولى » و «صيف عظيم» وكتاب تفاردوفسكي « بلد مورافيا » ..

وهكذا ينزع الادب السوفياتي الحديث الى تصوير الانسان في تعدد العلاقات التي تربطه بالوسط والمجتمع والتاريخ ، لان نمو الشخصية واغناءها ليسا الا شيئا واحدا مع حركة العصر كله .

— ٢ —

ما هي القضايا الرئيسية التي يعالجها الادب السوفياتي الحديث في اطار النزعة الانسانية ؟

ان الاهتمام بكل ما يجري على الارض ، والشعور العالمي بالمسؤولية تجاه كل ما يحدث في الكون هما احد الموضوعات الكبرى للنتاج السوفياتي.

يقول بطل الكسندر تفاردوفسكي في قصيدة « بعيدا ، بعيدا جدا » :

« لقد عشت ، ولقد كنت ،
وانا مسؤول عن كل ما حدث » .

وفي الاسطر الاولى من القصيدة يصرح البطل بأنه « يتدخل » في كل ما يحدث على الارض . فجدران «البيت الصغير » غير قائمة بالنسبة اليه ، وبيته انما هو « العالم الهائل القائم خلف الجدران » والكرة الارضية كلها هي عالمه الحي الذي خلقته أيد بشرية » .

وموضوع مصير الانسان والانسانية والمحتوى الخلقي والفلسفي للفرد المعاصر مطروح بوضوح في مسرحية

(١) راجع العدد ١١ لعام ١٩٦٢ من مجلة « اوفر اي اوبينيون »
œuvres et Opinions

(١) راجع مقاله عن الادب السوفياتي في مجلة « كولتور اي في »
Culture et Vie

سينمائية لليونيد ليونيف بعنوان « فرار السيد ماكنلي ». وماكنلي هذا احد الموظفين المتواضعين العاديين المحدودين الذي يجسمون مصير ملايين من الناس في العصر الذري الحالي وان حلمه البسيط بالسعادة يظل غير قابل التحقيق في عالم الملكية الفردية ، هذا العالم الذي لا يهتم فيه أحد بمصير رجل فقير متوحد . ويخيل لماكنلي انه جدير بحق حياة هادئة وبيت صغير وسعادة متواضعة . ولكنه يعيش في عالم يحكم عليه مغامرون سياسيون بالخوف الذري. وتشارك الدعاية وانوار الاعلانات واذاعات الراديو وشاشات التلفزيون والصحف بتحميل الجو بالجنون الذري. وهكذا يسير ماكنلي المسكين وسط هذا العالم مذعورا فاقد الراحة ، تتملكه فكرة واحدة: هي ان يفر من هذا «التاريخ» الفظيع ، من هذه البشرية المجنونة ..

ولكن رغبته في الفرار من مصير الانسانية تولد لديه سلسلة جديدة من الاعمال والافكار الاليمة تساعده على فهم مشكلة معنى الحياة والموت ، ومعنى الخير والشر . والخيار الذي يجد ماكنلي نفسه فيه ، بين ان يبقى مع الانسانية كلها ، يشاطرها مصيرها ، وبين ان يبقى على حدة ، منطويا في سعادته البائسة ، هو في الحقيقة الخيار الذي يجد فيه كل انسان نفسه في الظروف الحالية المعقدة . وقليلا قليلا يتكشف الطابع الوهمي للدرب الثاني امام ماكنلي ، فاذا هو يقذف من النافذة البطاقة التي تمنحه مكانا في ملجأ ضد الذرة ، فيفقد الى الابد امل ان يتحرر من القلق الذي يحمله العصر الذري ، ولكنه ينخرط على هذا النحو في صفوف البشرية .

ان الكاتب يجد في محاولات الفرد الوهمية بان ينتصب في وجه الانسانية ، وان ينفصل عن المجتمع ، ينبوعا للوحدة وللعجز الخلقي ولضعف بني البشر .

ان المستقبل ليس هو ملك البشر الذين انعزلوا عن المجتمع ، وعن قلق عصرهم . ان مستقبل العالم مرتبط بالانسانية الحقيقية ، بالانسان النموذجي الجديد الذي لا يظل مكتوف اليدين ، بل ينخرط قلبا وروحا مع البشرية. وهكذا تكون استحالة فصل الابطال عن الوسط الاجتماعي وعن سير التاريخ هي الملمح الرئيسي للنزعة الانسانية والواقعية الاشتراكية المرتبطتين قبل كل شيء بجمال الانسان الحقيقي.

ان الانسان لا يكبر خارج الانسانية ، على ما يقول الناقد يوري بورييف . ولئن أدى تطور الانسان خارج المجتمع الى انحطاط الشخصية وتفككها ، فان تطور المجتمع خارج الانسان ، وضد مصالحه ، هو أقل تقدمية. « ليس هناك تقدم خارج الانسانية ، وليس هناك انسانية خارج التقدم الاجتماعي » .

ويستشهد الناقد برواية « قسوة » تأليف بافيل نيلين . وفيها نرى فانكا احد انصار « الفرقة » الجنائية يتناقش مع رئيسه في مفهومين مختلفين حول التقدم الاجتماعي. فرئيسه يعتبر ممكنا التضحية بلازار باوكين(١) باسم « التقدم » ، باسم المجتمع ، وباسم نفوذ الفرقة والسلطة السوفياتية التي تمثلها . ويعارض بافيل نيلين هذا المفهوم القاسي ، اللاانساني ، لقضية اجتماعية، ويدلل على ان مثل هذا السلوك يتنافى مع مبدأ السلطة

**(١) وهو فلاح أمي ينضم الى عصابة تناهض الثورة . ولكنه تحت تأثير فانكا يجتاز أزمة خلقية خطيرة ثم يقرر ان يقطع علاقته بافراد العصابة ويساعد على اسر رئيسهم .**

## ايليا اهرنبرغ

***

السوفياتية بالذات ، ومع جوهر الافكار الشيوعية . «اجل، ليس الانسان محروقا من محروقات التاريخ يلتهب من غير ان يخلف اثارا ، ويتحول الى طاقة تغذي حركة اجتماعية فقدت انسانيتها . اننا لا نستطيع أن نستخدمه لتسمين حقل التاريخ من أجل انبات مستقبل مجرد فيه ! » .

**« وكذلك يذهب شولوخوف في قصته « مصير انسان » الى قلب موضوع العلاقات بين الانسان والمجتمع . فهو يظهر الغنى الروحي والجمال الذي يتمتع به الانسان حين يعيش من أجل الاخرين ويوكد حقه بالسعادة . والقصة تمتلىء اعجابا بشجاعة البطل ونبل روحه وتجرده ، كما تمتلىء ألما لاننا فعلنا قليلا جدا من أجل هذا الانسان الذي فعل كثيرا جدا من أجلنا والذي أعطى الوطن والانسانية . ( وهنا يقول الكاتب ) ان الوجودية تصدرعن فكرة أن هناك هوة تصعيدية لا تخترق بين الانسان والاخرين . أما شولوخوف فهو على العكس يؤكد بأن شعور الانسان بانه لا غنى للاخرين عنه هو الذي يدعمه في الحياة . وبدون هذا لا يفهم الانسان معنى وجوده ولا يجد القوى التي تتيح له أن يعيش. ان شولوخوف يتحدث عن مسؤولية الانسان بالنسبة لوطنه وشعبه، ويؤكد في الوقت نفسه مسؤولية الوطن والشعب بالنسبة لسعادة كل « فرد صغير » .**

— ٣ —

ولكن كيف يواجه الادب السوفياتي الحديث اشكال النزعة الانسانية ؟ وكيف يعبر الابطال عن هذه النزعة ؟ وهل حدث أي تطور في مفهوم الادباء في هذا الميدان ؟

يقول الناقد ستيبان كريجانوفسكي :

**« لقد اقترب الادب من الشعب ، من مشكلاته واهتماماته ، وهو**

يستجيب للتعطش الكبير الى الحقيقة ، هذا التعطش الذي يحسه الشعب . ولقد أصبح الادب اكثر انسانية وأقل تصويرية واوفر فلسفة وأغنى بالمشكلات . وقد بدأ الابطال والمؤلفون أنفسهم يتحدثون اكثر فأكثر عن الجمال والسعادة . وقد زادت قيمة الانسان ونما اهتمام كل انسان بالحياة . وان نمو الواقعية عمقا يفترض ايضا خلق الابطال السلبيين . ان نموذج المشكك والعدمي والطفيلي والبيروقراطي والسوقي والفردي والانتهازي هي نماذج مناهضة للانسانية ، ولكنها موجودة . وتصويرها تحت ضوء واقعي هو عمل انساني كبير يقوم به الكاتب ، وهو انجاز لواجبه كمواطن وخلاق » .

ويقول الناقد الشاب فليكس كوزناتسوف :

« ان أحد الملامح الهامة في ادبنا الحديث انه يخوض صراعا عنيفا ضد عدو حقيقي تماما ما يزال قائما : ضد اللااكتراث واللااحساس . ونستطيع ان نلاحظ هذا الصراع في سلسلة من الآثار : في كتاب « شرف » لميدانسكي وفي مسرحيتي فيكتور روزف «صراع غير متكافيء» و « نهار صاخب » ، وأمثال كتاب « ادخل الى كل بيت » لاليزار مالتسيف ، وروايات فلاديمير تانداياكوف وسواها ، أليست زاخرة بالاحتجاج العنيف ضد كل ما هو لاانساني ولاشعبي ؟ ».

وهناك عدة آثار يولي مؤلفوها اهتماما خاصا للوجود العادي للانسان . ويرى بعض النقاد ان هذا الاهتمام يؤدي الى افقار المبدأ البطولي ، والى خلق ادب خال من الابطال . ويؤكد فلاديمير تشاربينا ان في بعض الآثار رغبة حادة في تسجيل المجرى العادي للحياة ، ومن جانب واحد .

ولكن الكسند ديمانتييف يرد على ذلك بقوله ان الاهتمام الذي يوليه هؤلاء الكتاب للانسان العادي ، وارادة الترجمة عن رغباته وحاجاته ، وعن كرامته البشرية ، انما ازدادت في السنوات الاخيرة لتعارض رغبة « التجميل » و « التحسين » التي تتميز بها بعض الآثار .

ويعارض ديمانتييف بقوة ما يسميه محاولة اسقاط بعض افكار البشرية كحب الانسان والطيبة والشفقة من قاموس النزعة الانسانية .

وتستشهد الكاتبة المعروفة اولغا برغولتز بما كان دانين قد كتبه تعليقا على كتابها عن لينينغراد ، متحدثا عن الشفقة التي كان الوطن والشعب يكنانها للنينغراد . ولكن ناقدا قام يهاجم دانين ويقول ان الشفقة غير جديرة بالانسان السوفياتي : « اننا نكن للنينغراد شعور اعجاب واعتزاز ، وليس ثمة مجال لاية شفقة . » وتقول اولغا برغولتز :

« لقد كان مريعا ان نقرأ مثل هذا الكلام . ان الانسان يتميز عن عالم الحيوان بالشفقة قبل كل شيء . كل ما هو حي يمكن ان يتألم، ولكن الانسان وحده يستطيع ان يشفق ويتعاطف ، أي ان يحس ألم شخص اخر كما لو انه ألمه الخاص ، ويود لو ياخذ هذا الالم على عاتقه او يستدركه او يساعده » .

وتضيف اولغا برغولتز ان ميلا نحو افراغ الادب السوفياتي من النزعة الانسانية قد قام في عهد عبادة الشخصية ، وان هذا الميل قد سجل النجاح في لوحات وأفلام وقصائد وكتب كانت كل عاطفة بشرية ممنوعة فيها على الانسان بحيث لم يكن الفرد الا هيكلا قائما على ساقين . وتقول الكاتبة :

« لقد كاد هذا يختفي الان ، ولكن يخيل الي مع ذلك ان هناك بعض الردات . ومنها في رأيي المحاورات القائمة حول ما يسمى « الانسان البسيط » . وانا لا أفهم المقصود بهذه الصيغة . بم يكون هذا الانسان بسيطا ؟ أبسبب عمله ؟ ولكن غوركي كان قد حدد مهمة الكاتب في ان يتحدث عن الانسان ككائن « مدهش » ، مهما كانت المهمة التي يؤديها. ومن هذه الردات ايضا ما يسمى بمرض « الموضوعات الصغيرة » ، فانا لا افهم تماما ما المقصود بها . ويخيل الي ان ليس ثمة موضوعات صغيرة، وانما هناك طريقة هزيلة في معالجتها » .

*

هذا عرض واف لمفهوم النزعة الانسانية ولمضمونها في الادب السوفياتي . ولا ريب في ان هذه النزعة منتشرة انتشارا كبيرا وعميقا في النتاج السوفياتي ، ولا سيما في الآثار الكلاسيكية الكبرى امثال مؤلفات غوركي وتشيخوف وتولستوي ودستويفسكي .

على ان الباحث الموضوعي يفتقد في النتاج السوفياتي المعاصر امثال هذه الشوامخ التي لم يستطع الادباء المحدثون ان يدانوها او يلحقوا بها .

## ٣ ـ الاديب السوفياتي والدولة

كان الاديب السوفياتي يشكو ، في عهد ستالين ، الارهاب الفكري الذي تمارسه سلطات الحزب الحاكم . ولكن ، الى اي حد اصبح الاديب السوفياتي ، بعد زوال ذلك العهد والقضاء على « عبادة الفرد » ، يتمتع بحرية التفكير والتعبير ؟

لقد قال خروتشوف في خطابه الذي القاه يوم ٨ اذار ١٩٦٣ اثناء لقاء قادة الحزب والحكومة بممثلي الادب والفن :

« ان قضاءنا على عبادة الفرد لا يعني مطلقا اننا نعيش مرحلة تتراخى فيها ازمة الحكومة ، مرحلة استسلام يجري فيها قارب مجتمعنا على هواه ، ويستطيع كل انسان ان يستجيب لكل أهوائه ويفعل كل ما يبدو له حسنا . كلا . لقد اتبع الحزب وسيتبع بحزم الخط اللينيني الذي رسمه، واقفا موقفا لا يتزعزع ضد جميع الوان الحيرة الايديولوجية».

واذن ، فان الاديب والفنان مدعوان مجددا الى اتباع الخط اللينيني الذي كانت عبادة الفرد قد افسدته . وقد قال خروتشوف بصراحة في هذا الخطاب نفسه : « في قضايا الادب والفن ، تطلب اللجنة المركزية في الحزب من الفنان المبدع الذي اكتسب اكبر الشهرة ، ومن الفنان المبتديء الشاب تطبيق الخط الحزبي تطبيقا لا هوادة فيه» . ولا خلاف في ان هذا يعني ان الدولة تؤمن بالادب الموجه، وتأخذ على عاتقها مهمة رسم الخطوط الرئيسية له . وقد قال ايلتشيف في ذلك :

« ان من حظ الفن عندنا ان الحزب الذي يعبر عن مصالح الشعب الاساسية ، والذي يقوم كل نشاطه على مفهوم للعالم هو أكثر المفاهيم تقدمية ، هو الذي يحدد مهمات الخلق الفني وتوجيهه . ان الخط الرئيسي لنمو الادب والفن محدد في « برنامج الحزب » .

هذا هو المطلوب من الاديب السوفياتي : ان ينتج في حدود الخط الحزبي . ولكن احداثا أدبية وفنية قد وقعت اخيرا تدل ـ في رأينا ـ على ان تدخل الدولة في الميدان الادبي يتجاوز حدود الخط الحزبي الى املاء اشكال معينة ومحددة من التعبير الفني والادبي .

ولا بد لي هنا من أن استعرض هذه الاحداث ، ليتاح للقاريء العربي ان يطلع عليها ، ويشارك في تكوين رأي موضوعي فيها .

وهذه الاحداث تتعلق ببعض المعارض التي اقامها عدد من الرسامين السوفيات ، وبمذكرات ايليا اهرنبرغ ، وبزيارة بعض الادباء السوفيات للبلاد الغربية وصدور عدد من الكتب الجريئة .

ففي العام الماضي زار خروتشوف وبعض قادة الحزب

« معرض الرسامين التشكيليين » الذي اقيم في موسكو وشاهدوا آثار بعض الرسامين التجريديين والنحات نايزفستني ، فرأوا فيها « خربشات » مجردة من اي معنى ، ووصفوها بانها ليست الا « تشنجات مرضية » ، ونقليدا للفن الشكلي في الغرب البورجوازي .

وقد قال خروتشوف في المعرض : « ان مثل هذا « الخلق » غريب على شعبنا ، وشعبنا يرفضه . ويجب الا ينسى ذلك اولئك الذين يسمون انفسهم رسامين وهم يخلقون « لوحات » لا يدري المرء اذا كان الذي صنعها يد انسان او ذنب حمار . يجب ان يدركوا ضلالهم ويعملوا من اجل الشعب . »

والحق اننا لا نفهم الشر او الضرر اللذين يقعان على «الشعب» من الرسم التجريدي ! ما هي القضية «الحيوية» التي يمكن لهذا النوع من الفن ان يفسدها او يعود عليها بالاذى ؟

ربما كان المأخذ الرئيسي على التجريدية انها لا تستطيع ان تمثل بوضوح بعيد عن الالتباس انجازات الاشتراكية او الشيوعية . ولكن اليس من التضييق العنيف على حرية الفنان ان يلزم بانتاج محدد ضيق لا يجوز له ان يتجاوزه ، حتى ولو لم يكن في هذا التجاوز ما يحمل بذور الضرر « للقضية » ؟

يقول ايليتشيف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي : « ان التجديدات » التجريدية والعصرية هي تيار لم يكن قط علامة فن سليم صحيح ، وهو يستعد عن الخط الرئيسي لتطور الادب والفن السوفياتيين ، وينصرف عن ربط الخلق الفني بحياة الشعب وتطبيق البناء الشيوعي . »

ولكن اليس في هذا الرأي وقف وتجميد لتطور الفن، بحجة ان « الخط الحزبي » لم يتنبأ بمثل هذا التطور ؟

ونرى خروتشوف يستشهد في خطابه الآنف الذكر بمقطع لاهرنبورغ اورده في مذكراته واعلن فيه اصراره على الدفاع عن بعض المدارس الادبية والفنية كالكومفوت ( المستقبليين الشيوعيين ) والصوريين والتعبيريين والتجريديين والحاضريين ، فيعلق خروتشوف بقوله :

**« وهكذا يغذي مؤلف المذكرات ودا عميقا لممثلي الفن الموصوف بانه « يساري » ويريد ان يدافع عنه . امن الممكن التساؤل : يدافع عنه ضد من ؟ في الظاهر ، ضد نقدنا الماركسي اللينيني . لماذا ؟ طبعا للدفاع عن امكانية وجود هذه الظواهر او الظواهر المماثلة في فننا المعاصر . وقد كان هذا يعادل الاعتراف بتعايش الواقعية الاشتراكية والشكلية . ويرتكب الرفيق اهرنبورغ خطأ ايديولوجيا فادحا ، وان من واجبنا ان نساعده على ان يفهمه . »**

وتحدث خروتشوف عن موقف الشاعر افتوشنكو من الفن التجريدي ، فقال :

**« هذا وقد خطب الرفيق فتوشنكو في المرة الماضية لدى اجتماعنا مؤيدا المذهب التجريدي . وقد حاول ان يبرر هذا الموقف بان هناك رجالا شجعانا بين الواقعيين وبين الشكليين ، معتمدا على مثل مأخوذ من حياة فنانين كوبيين كانت لهما مفاهيم متناقضة في الفن ، ولكنهما ماتا بعد ذلك معا في الخندق نفسه وهما يقاتلان من اجل الثورة .**

**« لقد امكن لهذا لمن يحدث في الحياة كحالة خاصة . وبالامكان الاستشهاد بمثل معاكس تماما . فبعد الحرب الاهلية اقيم في مدينة ارنموفسك في اوكرانيا بناء شكلي بشع كان مصممه النحات التكعيبي كافالريدزه . وكان ذلك مشهدا قبيحا . ولكن التكعيبيين كانوا متحمسين ( وقد هدم البناء في اثناء الحرب ) وقد ظل صاحب هذا البناء في الارض المحتلة من قبل الفاشست وسلك سلوكا غير لائق . بمعنى ان**

تفاردوفسكي

نيكراسوف

***

**المثل الذي ذكره الرفيق افتوشنكو لا يمكن ان يتخذ حجة جدية في صالح هذه المعتقدات . »**

واستطرد رئيس الدولة السوفياتية يقول :

**« ويتفق موقف الرفيق افتوشنكو تجاه التجريدية مع الافكار التي يدافع عنها الرفيق اهرنبرغ . ان الشاعر الذي ما يزال شابا لا يفهم كثيرا من الاشياء في سياسة حزبنا ، وهو موضع ارتجاج ، وآراؤه في قضايا الفن غير ثابتة . ولكن خطابه في جلسة اللجنة الايديولوجية تسمح بالاعتقاد انه سيتمكن من التغلب على حيرته وتردده . وانا احرص على ان انصح الرفيق افتوشنكو والادباء الشباب الاخرين بان يقدروا ثقة الجموع ، ولا يبحثوا عن الاثارات الرخيصة ولا يتأقلموا مع عقلية البورجوازيين الصغار واذواقهم . لا تخجل ، ايها الرفيق افتوشنكو ، بان تعترف باخطائك ! ولا تخش ما سيقوله الاعداء ! وعليكم ان تدركوا بوضوح اننا اذا انتقدناكم لانكم انحرفتم عن المواقف المبدئية ، فان الاعداء يأخذون في مدحكم . واذا بدأ اعداء قضيتنا يمدحونكم بسبب الاثار التي تروقهم، فان الشعب سيكون على حق في انتقادكم . فاختاروا اذن ما يناسبكم ! »**

وعاد خروتشوف الى مذكرات اهرنبورغ ، فقال :

**« تنتشر اليوم اسطورة مفادها ان لينين كان يقف موقف تسامح ، ان لم يكن موقف ود ، من التجارب الشكلية في الفن . ومن سوء الحظ ان الرفيق اهرنبورغ هو بين الذين يذيعون الاكاذيب بشأن آراء لينين . فهو يكتب في مذكراته : « لقد روى لي لوناتشارسكي انه حين سأل لينين اذا كان من الممكن ان يمنح الرسامون « اليساريون » حق تزيين « الساحة الحمراء » بمناسبة اول ايار ، اجابه لينين : « انا لست اخصائيا في هذه المادة ، ولا اريد ان افرض ذوقي على الاخرين » .**

**« ان الرفيق اهرنبورغ يوحي هنا للقراء بان لينين كان يقبل ما يدعى بتعايش النزعات الايديولوجية المختلفة في الاتحاد السوفياتي .**

**وهذا خطأ ، ايها الرفيق اهرنبورغ ! وانت تعلم ان لينين هو الذي وضع مبدأ روح الحزب والشخصية الايديولوجية في الفنون والآداب . وقد دافع غوركي دفاعا حارا عن هذا المبدأ وكذلك كتاب اخرون تبنوا بعزم مواقف السلطة السوفياتية ، مواقف النضال من اجل القضية العمالية ، وانتصار الشيوعية . ولقد قدر لينين تقديرا عظيما روح الحزب والشخصية الايديولوجية والمهارة الفنية في رواية غوركي « الام » .**

**« ان قوة الآثار تكمن في المهارة الفنية وفي وضوح المواقف الايديولوجية وايجازها . ويحدث الا يروق هذا للجميع . واحيانا يهاجم الايجاز الايديولوجي للاثار الادبية والفنية بحجة النضال ضد النزعة البلاغية والتعليمية . وقد تجلت هذه الروح باجلى صورها في دراسة نيكراسوف متحدثا عن فيلم « مركز ايليتش » الذي لم يعرض على الشاشة بعد : « انني اعترف اعترافا عميقا بجميل كوتسييف وشباليكوف لانهما لم يجرا العامل العجوز الذي يفهم كل شيء ويعطي كل شيء جوابا**

**يوجين افتوشنكو**

*

منطقيا وموجزا ، لم يجراه من شاربيه . وكان حسبه ان يظهر بتعاليمه ليفسد الفيلم كله . »

« هذا ما نشره كاتب سوفياتي في مجلة سوفياتية ! ولا يستطيع المرء ان يقرأ ، من غير ان يفتاظ ، اقواله الملأى باحتقار السيد للعامل العجوز . وانا اعتقد ان هذه لهجة غير مقبولة من كاتب سوفياتي . ويجب ان نضيف ان القضية ليست في الدراسة المذكورة قضية التعبير عن موقف المؤلف تجاه امر فني واحد ، وانما هي الدعوة الى مبدأ غير مقبول اطلاقا في فننا ، ولا يسعنا الا ان نناقضه . »

وتعليقا على مذكرات اهرنبورغ « الرجال والسنوات والحياة » قال خروتشوف في الخطاب نفسه :

« ان ما يلفت النظر ، حين نقرأ مذكرات اهرنبورغ ، هو انه يصور كل شيء تحت لون قاتم . وفي عهد عبادة الشخصية ، لم يكن اهرنبورغ شخصيا هدف ملاحقات ولا قيود . وغير هذا تماما كان مصير الاديبة غالينا سيريبرياكوفا ، مثلا ، التي قضت اعواما طويلة في السجن . ولكنها رغم ذلك احتفظت بقوتها الروحية ، واخلاصها لقضية « الحزب » وبعد ان اعيد لها اعتبارها ، استعادت حياتها الخلاقة واستعادت سلاحها وكتبت آثارا ضرورية للشعب وللحزب ...

« ونذكر ان الرفيق اهرنبورغ ذهب ذات يوم الى فلاديمير لينين في باريس حيث استقبل استقبالا حسنا ، كما كتب هو نفسه . بل ان الرفيق اهرنبورغ قد انتسب الى « الحزب » ثم ابتعد عنه ، فيما بعد . انه لم يشارك مباشرة بالثورة الاشتراكية ، وانما وقف على الارجح موقف المراقب الاجنبي . واحسب انني لا اشوه الحقيقة اذا اكدت ان اهرنبورغ انما هو يقيم ، انطلاقا من هذا الموقف نفسه ، ثورتنا والمرحلة التالية في البناء الاشتراكي .

« ان مهمة الفنان هي ان يشارك مشاركة حية بنتاجه في توكيد افكار الشيوعية وفي توجيه ضربات ساحقة لاعداء الاشتراكية والشيوعية وفي النضال ضد الامبرياليين والاستعماريين . »

وبعد ان تحدث خروتشوف عن شولوخوف ومشاركته في حياة النضال تطرق الى موضوع استحالة « التعايش السلمي » بين الايديولوجيتين الاشتراكية والرأسمالية ، ثم قال :

« في المدة الاخيرة ، نشرت مجلات ادبية وفنية ودور نشر كثيرا من الاثار عن حياة المجتمع السوفياتي في عهد عبادة الشخصية وفي ايامنا . وطبيعية جدا هي رغبة الكتاب في تحليل ظواهر الماضي المعقدة . ومعلوم ان اللجنة المركزية للحزب قد دعمت آثارا ذات طابع نقدي حاد . ولكن يجب القول ان هناك كتبا تصور ، في رأينا ، بطريقة غير صحيحة على الاقل ، او بالاحرى مخطئة ، ظواهر واحداثا مرتبطة بعبادة الشخصية وطبيعة التغيرات المبدئية الرئيسية التي حدثت وتحدث في الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية للشعب بعد المؤتمر العشرين للحزب . واذكر في هذه الفئة قصة الرفيق اهرنبورغ « ذوبان الجليد » . ففكرة ذوبان الجليد مرتبطة بمفهوم عهد من اللااستقرار والتردد وعدم الانجاز وتغير الجو في الطبيعة ، في وقت يصعب فيه التنبؤ بحالة الطقس وتطوره . ان المرء لا يستطيع ، بواسطة هذه الصورة الادبية ، ان يكون رأيا حقيقيا عن طبيعة التغيرات المبدئية التي حدثت بعد موت ستالين في الحياة الاجتماعية والسياسيه والروحية ، في انتاج المجتمع السوفياتي . »

اما رحلات الادباء السوفيات الى الخارج ، فقد علق عليها خروتشوف بقوله :

« ان المرء حين يطلع على تصريحات بعض الادباء السوفيات في الخارج ، لا يستطيع انيفهم ما الذي كان يهمهم : اكان يهمهم ان يرووا الحقيقة المتعلقة بالانتصارات التي حققها الشعب السوفياتي ، ام ان يروقوا بأي ثمن للجمهور البورجوازي . ان مثل هؤلاء « المسافرين » يعطون تصريحاتهم ذات اليمين وذات الشمال لمختلف الصحف والمجلات ووكالات الانباء البورجوازية بما فيها اشدها رجعية ، وفيها ينشرون بلا مسؤولية مدهشة ، اساطير عن الحياة في مسقط رأسهم .

وقد خلفت رحلات نيكراسوف وباستوفسكي وفوزنيسنسكي في فرنسا انطباعا سيئا . وصرح كاتاييف تصريحات يعوزها التفكير اثناء رحلته عبر اميركا . ويكفي في الخارج تملق كاتب تعوزه الصلابة وتسميته بأنه « رمز مرحلة جديدة » او ما يشبه ذلك حتى ينسى من اين اتى ولماذا ، ويبدأ في قول الحماقات .

وقد قام الشاعر افتوشنكو حديثا برحلة الى المانيا الغربية وفرنسا، وعاد من باريس حيث تكلم امام جموع حاشدة من العمال والطلاب واصدقاء الاتحاد السوفياتي . ويجب ان نكون منصفين ونذكر ان الرفيق افتوشنكو قد سلك مسلكا لائقا في هذه الرحلة ، ولكنه لم يستطع هو ايضا ، اذا صدقنا مجلة « لاليتر فرانسيز » ، ان يقاوم اغراء استحقاق المدائح من الجمهور البورجوازي . »

وبعد ، فقد حرصنا على ان نورد هذه المقاطع الكبيرة من خطاب خروتشوف لنثبت للقراء امرين :

اولهما ـ ان صرامة الخط الحزبي في الاتحاد السوفياتي ما تزال تفرض على الادباء والفنانين السوفيات حدودا وقيودا تحرمهم من ممارسة قدر من الحرية لا يستطيع الاديب ان يتخلى عنه دون ان يتخلى عن حقه في التعبير .

اننا نفهم ان يكون الادباء السوفيات مؤمنين ايمانا لا يتزعزع بالنظام الشيوعي والفكر الاشتراكي ، وان ينتجوا كثيرا من آثارهم بوحي من هذا الايمان ، وان يكونوا في ذلك مخلصين كل الاخلاص ، ولكننا لا نفهم ان تقوم سلطة الحزب الحاكم بفرض قيود على مدى الانتاج ، وتحريم خلق الوان جديدة من الادب والفن لا تتعارض قط مع اهداف الحزب وانجازاته .

والامر الثاني ـ ان انتقادنا الاشد ومأخذنا الاعنف هو ان يتولى « رئيس الدولة » توجيه الانتقادات القاسية والاتهامات العنيفة الى الادباء والفنانين ، فليقي بذلك ظل الدولة الكثيف فوق الآثار الادبية والفنية ، ويحدث ضغطا واضحا على الانتاج ، شاء ام ابى . والحق ان خروتشيف لو كان ناقدا عاديا ، لا يتولى السلطة في البلاد ، لما كان عليه مأخذ قط . ولكنه ، وهو رئيس دولة ، يفرض رأيا لا يمكن الا ان يخلف تأثيرا شديدا على الادباء والفنانين . فتتعطل لديهم ملكة الحرية في الاختيار والتعبير ، وليسوا بمستطيعين دائما ان يقفوا في وجه هذا الرأي او يعارضوه .

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

# اضواء على الادب السوفياتي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

والواقع ان هذا الموقف « الرسمي » قد ادى ، ولا يزال يؤدي ، الى نتيجتين : اولاهما ان حملات مركزة في جوقة منسجمة قد شنت على هؤلاء الادباء والفنانين ، حملات قام بها النقاد والدارسون ، ولا سيما بعد خطاب خروتشيف ، وكانوا غالبا ما يستشهدون بنصائح رئيس الدولة ومواعظه ، والثانية ان معظم هؤلاء الادباء والفنانين الذين وجهت اليهم الانتقادات العنيفة لم يجدوا الا ان يتراجعوا علنا « ويستغفروا » عن ذنوبهم « ويتوبوا » الى الحزب توبة نصوحا ...

لقد اوردت مجلة « اوفر اي اوبينيون » (١) عرضا مسهبا لمناقشات مؤتمر الكتاب السوفيات الذي انعقد بعد خطاب خروتشوف فقالت « ان الاجتماع العام للكتاب قد اولى اخطاء افتوشنكو في سلوكه وفي انتاجه اهتماما كبيرا » ورددت تهمة نقص النضج السياسي والايديولوجي لدى الشاعر ، ووصفت كتابه « سيرة ذاتية ناضجة قبل الاوان » بأنه كتاب دعي يضم احكاما خاطئة تجر القارىء الى الخطأ في تقييم كثير من الظواهر الهامة في الحياة السوفياتية ، وقالت : « انه محشو بروح من اللامسؤولية ومن الدعاية الشخصية » . وواضح ان هذا التقييم للكتاب لا يقوم ، كما ينبغي ان يقوم ، على اساس من وزنه الفني.

وقد تحدث يوري جوكوف ، محللا « السيرة الذاتية »، مشيرا الى « اخطاء » افتوشنكو ، فقال :

**« اننا جميعا جنود حزبنا . ولا اعني ان افتوشنكو ليس جنديا . انه يتفق له ان يكون جنديا طيبا ، كما حدث حين كتب قصيدة « هل يريد الروس الحرب ؟ » وحين كتب اشعاره عن كوبا او قصيدته عن هلسنكي ضد الفاشية . ولكن لماذا تراه ينتقل بمثل تلك الخفة الى مراكز الاستسلام امام العدو الايديولوجي ؟**

وقال ليونيد نوفتيشكو في الموضوع نفسه :

**« ان قضية افتوشنكو تثير الغيظ . ولكنها تحمل عبرة . فمع كل ما لدى افتوشنكو من الحسنات ، فانه قد ادخل في شعر الشباب نموذجا للشاعر غريبا كل الغربة عن ادبنا : نموذج العياب ، السياسي ، صانع المجد لنفسه . والمؤسف ان المثال كان معديا . فالمضاربة بالسياسة تظهر عندنا في اوكرانيا ايضا في انتاج ايفان دراتش وفنغرانوفسكي ...**

**« وهناك شيء اخر : ان افتوشنكو انسان تعوزه الثقافة اطلاقا ، بالاجمال ، ويعوزه على مستوى الثقافة الماركسية ، المفهوم الماركسي للعالم .**

**ان ذكرياته معنونة « سيرة ذاتية لانسان ناضج قبل الاوان » واضيف الى ذلك : انسان لم يتعلم شيئا تعلما جادا . انني اثني على النقد ، وعلى روح المراقبة ، وعلى « الظهور » المستحب في الحياة في الوسط القريب منه . ولكني حين اقرأ اشعاره ، يحدث لي غالبا ان اتعثر في الاماكن التي يبدأ فيها بالتفلسف . وهذا كله اذا اضفنا اليه الاقدام الهائل الذي ينعم به هو واصدقاؤه ، يخلق في الادب مرقا دونا يجب ان يحمل محمل الجد . »**

واشار بوريس روريكوف الى ان فوزنسنسكي واكسيونوف وافتوشنكو قد تمثلوا تاريخ الشعب السوفياتي تمثلا خاطئا ، وانهم اخذوا فكرة مشوهة ومتشائمة عن عهد السنوات الثلاثين ، فنشأت لديهم نظريات من كل نوع تنصب « الآباء » في وجه « الابناء » ، وتنصب الاجيال « المجددة » في وجه الاجيال « المحافظة » .

وانتقد اناتول سوفرونوف تشجيع الكتاب والادباء الشباب ، وانتقد نشر مذكرات اهرنبورغ في نوفيمير وقال اننا لا نستطيع ان نقرأها من غير ان نشعر بشعور الحنق والغيظ » وحين قال شيباشوف المدير السابق لمنظمة ادباء موسكو : « لا استطيع الا ان اذكركم بايليا اهرنبورغ في زمن الحرب » قال سوفرنوف : ولكن القضية قضية ما يكتبه اهرنبورغ اليوم !

وقال فاسيلي سميرنوف : « يجب ان نربي اولئك الذين سيحللون محلنا في الادب ، ان نربيهم في تقاليد الادب الروسي الطليعي والادب العالمي الكلاسيكي والتقاليد الاشتراكية الثورية التي يعرفها الادب السوفياتي ، وفي الروح الحزبية والشعبية لفننا ، التي هي حجر الزاوية في منهجنا الواقعي الاشتراكي . »

وقد تحدث افتوشنكو في الجلسة العامة للادباء السوفيات ، **فاعترف بخطأه الفادح** ، وقال بصورة خاصة :

**« بصفتي عضوا في مجموعة الكتاب ، اجد من واجبي المدني الا اختبيء في الادغال لافلت من المسؤولية ، وانما علي ان اعطي تفسيرات ... لقد قدموني غالبا في الغرب بصفتي « الشاعر الذي تلعنه الساحة الحمراء » وقد تحدثت اكثر من مرة ، في البلاد الاجنبية ، لارد على المفترين . واردت في « سيرتي الذاتية » ايضا ان اثبت اني لم اكن قط شاعرا تلعنه الساحة الحمراء ، وان الايديولوجية الشيوعية كانت وما تزال وستبقى اساس حياتي كلها . وانا ارى الان ان « سيرتي الذاتية » قد كتبت باسرع مما ينبغي ، وان فيها كثيرا من الصيغ غير الصحيحة ومن التفاصيل النافلة ومن الاشياء البعيدة عن التواضع . »**

وصرح افتوشنكو انه عارض اكثر من مره تعبير « ذوبان الجليد » الذي اطلقه اهرنبورغ تمييزا للمرحلة اللاحقة للمؤتمر العشرين ، وقال ان تلك الفترة كانت ربيعا ، كانت الاعوام التي تفتحت فيها البلاد . واضاف :

**« ان في « سيرتي الذاتية » اشياء رصينة ، جادة ، معاشة . ولكني ارى فيها ، اذ اعيد قراءتها اليوم ، اشياء كثيرة سطحية واحيانا غير متواضعة . وغلطتي الرئيسية هي انني نسيت اخلاق الصحافة الاجنبية . وقد عوقبت على ذلك عقابا قاسيا . »**

وذكر افتوشنكو ان المجلة الفرنسية الاسبوعية قد اضافت الى سيرته عناوين مثيرة ونشرت مقالات تعطي هذه السيرة معنى لم يكن يقصد ان يعطيها اياه ، وقال معلقا : « ان هذا المثل قد اقنعني مرة اخرى بنتائج **خفتي المعيبة** » .

**« ويجب ان اقول ايضا اني حين عرفت النص الفرنسي ، دهشت للتشويهات و « التصحيحات » التي اجراها تحرير « الاكسبرس » . فقد حذفوا مثلا نهاية « سيرتي الذاتية » . وكنت قد كتبت فيها : «كان طالب قد قال لي ، وهو بعيد عن ان يكون حفيدا للثورة الفرنسية : انني مع الاشتراكية بالاجمال ، ولكني افضل ان انتظر ريثما تصبح لديكم مخازن كمخزن « غاليري لافاييت » ولعلني حينذاك سانافس من اجل الاشتراكية . » وقد خجلت نيابة عن هذا الشيخ الشاب الذي يجب ان نقدم له المستقبل على صينية من فضة ، مستقبلا مطبوخا جيدا ، مشويا جيدا ، مع عرق من الشمار . ربما وافق ، آنذاك ، على ان يزرع فيه شوكته ... لقد صنعنا المستقبل نحن بالذات ، زاهدين حتى بالضروري، متألمين ، مخطئين ، ولكنا صنعناه . »**

**« نعم ، لقد كتبت هذا ، فحذفته « الاكسبريس » . وسأذكر فيما يلي مثلا مما اضيف الى نصي الاصلي . فقد كنت اتحدث عن برقية كان قد ارسلها الي منذ اعوام بحارة سفينة حربية ، يمتدحون فيها اشعاري . وانا اعترف الان انه كان ينبغي لي الا الجأ الى تلك البرقية ، وان ذلك لم يكن متواضعا . ولم تكتف « الاكسبريس » بذكر هذا المقطع بشكل يبدو فيه عدم تواضعي مبالغا فيه جدا ، بل اضافت شيئا لا يمكن**

(١) راجع العدد السادس تاريخ حزيران ١٩٦٣

تصوره : « لقد وقع البرقية جميع بحارة الباخرة . والذين يعرفون تاريخ بلدي وثورته ، يعرفون اي نفوذ اكتسبه بحارة البلطيق عام ١٩١٧ . وقد كان في رسالة ورثتهم ما يعوضني من جميع الهجمات التي تعرضت لها . كنت اتنزه في شوارع موسكو ، عالي الرأس ، كما لو انني حصلت على المدالية الذهبية » .

« انني لم اكتب هذا ، وانما « الاكسبريس » هي التي كتبته .

« واكرر انني ارتكبت غلطة لا تعوض . وانا اشعر بذنب ثقيل يؤود كتفي . ولا اني افكر بالمسؤولية الضخمة التي تقع على كل كاتب سوفياتي . وصدقوني ان هذه ليست عبارة جوفاء ، بالنسبة لي . لقد تألمت كثيرا وعانيت كثيرا في هذه الايام الاخيرة . وهذا درس لي في حياتي كلها . واريد ان اؤكد للكتاب انني ادرك تماما اني اعي وعيا كاملا خطئي ، وانني سأجهد لاصلاحه فيما يلي من اعمالي » .

وقالت مجلة « اوفر اي اوبينيون » تعليقا على خطاب افتوشنكو :

« من الضروري القول ان هذا الخطاب لم يرض الجضور . فقد كانوا يشعرون بان فيه لهجة تظهر ان افتوشنكو لم يع جذور خطئه ، سواء اكان ذلك في « سيرته الذاتية » ام في بعض اشعاره .

وقال اندريه فوزنسنسكي في الاجتماع العام للادباء :

« لقد قيل هنا ان علي الا انسى الكلمات القاسية الخشنة التي قالها خروتشوف . انني لن انساها ابدا . كذلك لن انسى نصائحه . لقد قال : « اعملوا ! » وهذه الكلمة هي بالنسبة لي برنامج . سأعمل ، وانا اعمل ، وافكر كثيرا ، وقد فهمت اشياء كثيرة في هذا الذي جرى في الكرملين وفي الذي قيل في الجلسة العامة . انني ادرك مسؤوليتي الضخمة امام الشعب ، وامام الحقبة ، وامام الحزب الشيوعي . ان هذه اعز المباديء لدي . وانا لا ابرر نفسي ، وانما اريد ان اقول : المهم بالنسبة لي اليوم هو ان اعمل ، وان اعمل ، وان اعمل ، وهذا العمل سيظهر موقفي تجاه بلدي وتجاه الشيوعية ، سيظهر من اكون » .

هذه هي الاعترافات التي ادلى بها افتوشنكو وفوزنسنسكي . اما نكراسوف ، فقد كان احرص منهما على كرامته ، فرفض ان يعترف بشيء ... وكانت النتيجة انه فصل من الحزب الشيوعي !.. واما اهرنبورغ فيبدو ان له من ماضيه ما جعل السلطة تغض النظر عن اتخاذ تدبير قاس بحقه ...

ويخيل الينا ان الخوف مما تقوله « الصحافة الغربية البورجوازية » قد اصبح عقدة لدى القيمين والمشرفين على النشاط الادبي والفني في الاتحاد السوفياتي ، فهم لا يفتأون يحذرون الادباء من ذلك فيقسرونهم على التقيد في تصريحاتهم وتصرفاتهم بحدود شديدة القسوة والصرامة ، على غير ما فائدة حقيقية .

لقد قرأنا مذكرات افتوشنكو ، فوجدنا فيها تمجيدا مخلصا للثورة الاشتراكية وللنظام الشيوعي . اما ان يكون افتوشنكو « مغرورا » فتهمة تافهة لا شأن لها في تقييم النتاج الفني ، لا سيما اذا كان صاحبه شاعرا استطاع ان يجذب اليه الوف المستمعين وان يشعرهم بأنه ساحر ، الى كونه شاعرا !

صحيح انه لم يحدث اليوم . كما كان يحدث في عهد ستالين ، ان نفي اديب « خارج على الخط الحزبي » الى سيبيريا او وضع في معسكرات الاعتقال ، او اختطفه البوليس .. ان مثل هذا الارهاب غير موجود اليوم . ولكن هذه الطريقة في انتقاء الادباء ، من قبل رجال الدولة المسؤولين ، وفي اسداء النصح لهم ، وفي حثهم للعودة الى الخط ، وفي استثارة النقاد وتأليبهم عليهم ، وفي اتهامهم بالغرور والسطحية والخفة ، اليست هذه الطريقة نوعا من الضغط المخيف ، ان لم نقل الارهاب ؟ او ليس هذا شبيها بـ « المكارتية » الاميركية ؟ وبالارهاب البوليسي الذي يمارسه نظام فرانكو على الادباء والمفكرين الاسبان ؟

## ٤ ـ السوفيات والادب الاجنبي .

يهتم الادب السوفياتي الحديث ، ولا سيما جانب النقد فيه ، بالتيارات الادبية الاجنبية ، فيدرسها ويبدي رأيه فيها . ومن البدهي انه ، لالتزامه خط الادب الواقعي الاشتراكي دون سواه ، يبدو في احيان كثيرة محدود النظرة ، مهملا في ذلك نتاج كثير من الادباء الذين لهم شأنهم في تاريخ ادبهم .

على ان النقد السوفياتي يبدو الان وكأنه يحاول ان يتخطى هذا المسلك اذ يقدم للقراء السوفيات نماذج مختلفة من النتاج الادبي المعاصر ليست دائما في الخط المطلوب ، وان كان يقدم لهذه النماذج بدراسات نقدية صارمة .

وقد اهتمت الدراسات الادبية اهتماما واسعا بنتاج الادباء التقدميين في العالم امثال هنريك مان وبرنارد شو وتبودور درايزر وتوماس مان وشارلز سناو واندريه ستيل ولويس اراغون وهمنغواي . وثارت مناقشات كثيرة في الفترة الاخيرة حول نتاج ريمارك وغراهام غرين ، واثنى النقاد على ادباء المانيا الغربية : كوبان وهنريك بول وهانس ريشتر وكريستيان جيبسلر (*) .

ويبدي النقاد السوفيات موقفا سلبيا عنيفا من الفلسفة والادب الوجودي ، لاعتقادهم بأن الحلول التي يقدمها لمشكلات الانسان ليست حلولا انسانية .

وفي ذلك يقول ايفان انيسيموف : « ان مفهومنا للانسانية ليس مرتبطا بالكرامة البشرية فحسب ، بل ايضا بوحي واجبنا التاريخي . ان النزعة الانسانية الثورية مرتبطة دائما بالصراع ضد كل ما هو معاد للانسان والانسانية . فالعطف والشفقة غير كافيين ، ولا بد من التدخل الفعال الهادف الى اسقاط البشر . »

ويأخذ الناقد على انسان سارتر مثلا ، ذلك الذي

(*) هناك ناقدة سوفياتية معروفة تخصصت بدراسة الادب الاجنبي ، هي تامارا موتيليفا التي اصدرت عدة كتب اشهرها « انا سيغرز » و « اهمية تولستوي العالمية » و « نتاج رومان رولان » . وقد اثار اخر كتاب لها وعنوانه « الادب الاجنبي والظروف الحالية » كثيرا من النقاش ولا سيما حول موضوع الواقعية في القرن العشرين .


مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير تلفون ٢٢٧٦٨٢

لجميع كتبكم المدرسية
العربية
والفرنسية
والانكليزية

يستولي عليه القلق ويحس ابدا انه مهجور ، يأخذ عليه انه ليس انسانيا الا بقدر ما يعلم ان هناك عددا كبيرا من البشر ، امثاله . ولكنه لا يستطيع ان يفعل شيئا ليساعد نفسه او ليساعد الاخرين .

واوضح ان هذه التهمة التي يلصقها الناقد بالادب الوجودي لم تتعمق دراسة هذا الادب الذي يبدو في معظم نماذجه ادبا انسانيا .

ويقف النقد السوفياتي موقفا مماثلا من مدرسة « الرواية الجديدة » او « اللارواية » . وفي اجتماعاتي بمحرري « نوفي مير » و « الادب الاجنبي » و «ازفستيا» طرحت اسئلة كثيرة حول هذا الشكل الجديد من الرواية فانكروه جميعا واكدوا انه لن يكون له مستقبل في النتاج السوفياتي الحديث . وهم يأخذون عليه انه يبتعد عن الفن الانساني حين يحلل جوهر الانسان الواحد الكامل الى « معقدات » وعواطف ، ويعزل الفرد عن المجتمع ، ويطوي الشخصية على ذاتها . ويقول الناقد نيقولاي غايي:

« ان مؤلفي « الرواية الجديدة » لا يرون الخطوط الحقيقية التي تميز فردا من ملايين الكائنات المشابهة . انه محروم من حق ان يكون شخصية ومحروم من سيكولوجية خاصة . » (١)

ويميز النقاد السوفيات الواقعية الاشتراكية من واقعية نقدية تتظاهر بتحليل المجتمع الغربي تحليلا انتقاديا ، ولكنها لا تبلغ به حد ادانة البورجوازية ، ويعتبرون كبلنغ وموم ولورانس وهكسلي وباريس وبروست وجيد وجيونو ومورياك وكامو واونيل وفيتزجرالد وبرومفيلد وهرساي وسالنجر ممثلين لهذه النزعة المشوهة.

اما ادبنا العربي الحديث ، فيلقى اهتماما متزايدا لدى المستعربين السوفيات ، وهم يعنون عناية خاصة بالانتاج المعاصر والابحاث اللغوية العربية ، ويترجمون نماذج كثيرة من آثارنا الحديثة (١) . وقد بدأوا يدركون اليوم ان هذه الترجمات يجب الا تقتصر على نتاج الادباء الشيوعيين العرب ، لان النزعة التقدمية ليست حكرا لهم . وقد حمدنا للمترجمين السوفيات اهتمامهم الجديد بترجمة كل ما يمثل الادب العربي الحديث ، ومن هؤلاء السيدة هيلينا ستيفانوفا التي ترجمت « دعاء الكروان » للدكتور طه حسين و « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ وتترجم له الان « قصر الشوق » من ثلاثيته المعروفة .

*

وبعد ، فحسب هذه الزيارة للاتحاد السوفياتي ان تشعرنا بتقصيرنا في دراسة النتاج الادبي الضخم في تلك البلاد ، دراسة موضوعية عميقة . وان لنا ـ نحن العرب ـ فوائد كثيرة نجنيها من قراءة تلك الآثار ، وان كنا نتمنى ان يتاح للاباء السوفيات حظ اكبر من الحرية للتعبير عن آرائهم ومشاعرهم . والواقع ان العهد الجديد ، بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ، قد سجل خطوات في هذا المضمار ، نأمل ان تتبعها خطوات ، لا سيما وان السياسة السوفياتية الحالية تنزع الى الانفتاح ، والى مزيد من التعايش الفعال .

**سهيل ادريس**

(١) ستنشر « الآداب » في عدد قادم عرضا لرأي النقد السوفياتي بالرواية الجديدة .

(١) سنعرض في عدد قادم لجهود الاستعراب في الاتحاد السوفياتي


**في الاسواق :**

**من القاهرة الى معتقل قاسم** — **المثاني والسلام** (شعر)

**كتابان من تأليف**

**الاستاذ عدنان الراوي**

فصول مثيرة عن الاضطهاد الذي فرضه العهد القاسمي الاسود على احرار العراق في سرد جذاب يتابعه القارىء بحماسة

**الثمن ٢٥٠ ف.ل**

قصائد قومية هادرة تفضح زيف دعاة السلام في العراق وتصور العهد الشعوبي الاحمر الذي ازالته ثورة ١٤ رمضان المجيدة

**الثمن ٢٠٠ ف.ل**

**منشورات دار الاداب**